جوانب غامضة في الأدب العربي المعاصر

الشيخ "قاف" وكتابه "تحت الرماد"

بقلم انور الجندي

لطالما تمنيت ان اكشف عن هذا الجانب الغامض في حياة الشيخ « قاف » احد كتاب الادب العربي المعاصر ، الذين قرأ الناس كتاباتهم في مجلة الثقافة المصرية في اوائل يناير ١٩٤٢ بهذا التوقيع الغريب والذي استمر حتى عام ١٩٤٤ تحت عنوان « الصحافة والادب في اسبوع » مصدرا بابه بهذه العبارة « هذا رأيي ، وعليه تبعته وحدي ، فمن سره فهو صديق ، ومن ساءه فليس احب الى من ان يجلو لي رأيه، ويعرض برهانه ، لتصحيح رأي ، او تعديل فكرة ، او تحقيق خبر ، وان من الفضيلة الا نثبت على الرأي الا بمقدار ما نؤمن به . »

ولطالما عرض الشيخ قاف في بابه هذا من اراء جريئة هاجم بها انزلاق الكتاب في مجال الرأي ، وانحراف الصحفيين في مجال الفكر. وقد وصف بابه منذ اليوم الاول بان الاشواك تكتنفه من جانبيه وان مزالقه لكثيرة وأن دواعي الهوى لتجاذب من يسلكه غير مزود بايمان راسخ وجنان ثابت وعين بصيرة وعدة من الحق يتوقى بها ان يلين لشفاعة صديق او مخافة تسلط ..

ولكن صاحبنا لم يمض به الطريق الا شوطا او شوطين حتى توقف ، ولم يعد يكتب ، عددا من الشهور ، من يناير الى مايو عندما عاد معتذرا ، ترى ماذا حدث له ؟ ان الذي حدث جد خطير ، انه تحول في حياة انسان وكاتب ، ان القدر قد فجعه في اعز نفس ، نفس الزوجة الحبيبة التي عاش لها خمسة عشر عاما ينتظرها ، فلما جاءت لتملأ حياته لم تلبث أن وضعت طفلتين ، فاذا هو يرتقب « الولد » ويحلم به، فاذا جاء الولد اغمضت الام عينها اغماضة الموت ..

وتركته في ذهول ، وتركت بين يديه طفلا لا يعي ، كان له من بعد ولاخوته ، الاب والام معا ..

ومن هنا بدأت حياة الشيخ قاف تتحول ، كل شيء فيها بعد ذلك يصدر عن هذا الحدث ، الذي ربما مر في حياة بعض الناس هينا يحمل الالم والدموع ثمة ، ثم تفرج النفس وتمر الايام فتسلو وتنسى ..

ولكن الكاتب الاديب الشاعري النفس ، الرقيق الحس ،لا يستطيع فهو يعيش مأساته ، ويجتر احزانه ويواصل في بابه يكتب ، وبين السطور والكلمات يدس مشاعره .. انها قصاصات من كتاب كبيراسماه فيما بعد « تحت الرماد » هذا الكتاب لما ينشر بعد .

وقد ذهب صاحبنا بالامس الى حيث يلقى ذلك الانسان الذي احبه ، يلقاه في دنيا الخلود بعد عشرين عاما وعاما تقلبت فيها الدنيا وتحولت ، وغني صاحبنا واثرى ، ولمع اسمه واتسع بين المشرق والمغرب، واتيح له ان يمسك بزمام امور الثقافة والفكر ، وكبر الابناء اليتامى وشب الابن الذي تركته امه رضيعا ، وتزوجت الفتاة .

وهكذا الدنيا .. رحلة طويلة . وعاش كتاب (الشيخ قاف) مخطوطا ولا يزال وربما نسيه صاحبه في زحمة الاحداث حتى اردنا اليوم في مجال ذكرى الموت ان نعود الى هذه الصفحات فننشرها،كلون رائع من الوان ادبنا العربي المعاصر ، ذلك هو ادب رثاء المرأة المحبة . وذلك فن لم نقرأ له في كتابات المعاصرين نثرا ، وان قرأنا له شعرا عند شاعرين توفيت لكل منهما زوجة محبة : « عزيز اباظة » في ديوانه « انات حائرة » وعبد الرحمن صدقي في ديوانه « من وحي المرأة »

اما في النثر فان الشيخ قاف هو اول الكتاب لهذا اللون . ولقد عاش اسم الشيخ قاف مطويا لا يأبه له أحد حتى أتيح لي أن أسأل الكاتب عنه في مراجعة طويلة لآثاره فقال انه يهدف الى معنى قفا يقفو آثار الكتاب وخطواتهم .. ، ومن العجب انه ما كان يقفو آثار الكتاب حتى اضطره القدر ان يقتفي اثر قلبه ومشاعره ..

**

عاد الشيخ قاف بعد وفاة زوجته الى الكتابة خجولا ، حزينا ليقول للناس : « كم اسبوعا ، بل كم شهرا والباب مغلق بيني وبين الدنيا ، مغلق بيني وبين نفسي ، ما اقسى سخرية الدنيا بناسها ، لكأن بيني وبين ماضي أعواما وأعواما ، وعمرا طويلا من الالام ، واجيالا من التجارب والذكريات ، كأنها حديث امم وتاريخ اقوام ، وكأن ليس بين يومي وامسي صلة من الزمن كالصلة بين كل يوم وامسه ، فانا من ذلك الماضي القريب كالمستيقظ في اعقاب حلم ساحر ، كان حقيقة تسعده ، فصار وهما يشقيه،فليس نور النهار في عينيه الا ظلمةمتدجية، تضرب بين حيايين من عمره بسور ليس له باب ، من ورائه ركام من الذكريات وحطام من الاماني واشتات من الاباطيل والاوهام .

وهل كان يقوم في نفسي يوم بدأت الكتابة لي هذا الباب منذ بضعة اشهر ان سيقطعني عنه ما قطعني من بغتات القدر ، فلا اكاد اضع القلم بعد الكلمة الاولى حتى يغشاني ما غشيني ، فلا املك أن اقرأ بعد ولا ان اكتب ويغلق الباب بيني وبين الدنيا ، وبيني وبين نفسي وتظل موعدتي للقراء بلا وفاء .

.. وكانت موعدة صدق فكذبها القدر » ...

**

ويجيء الربيع فتوحش النفس الحزينة وتواجه الحياة فياشفاق:

« هذه نفسي تثوب الى الحقيقة رويدا ، وهذه الظلمات تنقشع من عيني قليلا قليلا ، وهذه هي الدنيا ، هنا غناء ورقص وموسيقى وأراح .. وهناك نواح وجراح وانات واحزان .. هناك وراء خيال المتخيل ، دور خالية ، وظلمات داجية ، واطفال يتضاغون من الجوع ، ليت شعري ايعرف من هنا حقيقة من هناك .. هذه هي الدنيا ، بلى ان وراء كل غفوة صحوة ، ..

**

ثم يمضي فيصور حياته مع الطفل الرضيع :

« استهل الصبي صارخا للمرة العاشرة ، ولما يمض على رقاده في الفراش ساعة . ووضعت قلمي وطويت كتابي ، وهرولت اليه انظر ما به ، والتقت عينان بعينين ، وابلغ الداعي الصغير بعينيه ما لا يستطيع بيانه بلسانه ، وجثوت بجانب فراش الطفل اهدهده برفق ، وفي القلب وجيب ، وفي العينين دموع ، واغراني سكون الليلبالنجوى، فرحت ابث الطفل من وجدي ، وما به ان يسمع ولا ان يجيب ، واستجابت لي عيناي

يا لك يا بني من الدنيا ويا لي ..

وتجاذبتني ذكريات الماضي فانسربت اليها ، وغفلت عن طفلي وعن دنياي ، الا يمينا تهدهد فراش الصبي في حركة آلية كأنها رعشة

المقرور ، وكأنما احس الطفل ان اليد التي تهزه في المهد ليس فيها قلب صاحبها فتململ ثم عاد يبكي ، واستيقظت من ذكرياتي ، وتناولته بين ذراعي ، احاول ان اشعره في حرارة صدري بعض ما فقد من حنان الام ، الام التي ودعت دنياها ساعة إستقبل دنياه ، فلم تكتحل عيناها بمرآه ولم تكتحل عيناه ..

واستنام الطفل الي وانسرح في دنيا احلامه الناعمة ، وما دنيا احلامه الا ثدي وارجوحة واغنية ، ومن يدري ، لعل في دنيا احلامه خيال الام التي غيبها الموت عن عين ابيه منذ بضعة اشهر ، ولعلها قد حال الموت بينها وبين الاحياء وحرمت ان تراه ، كما ترى الامهات اطفالهن ، ان ينزو بها شوق الام فتجتاز اليه او يجتاز اليها في احلامه برزخ الغيب لتراه ويراها ، والا فما هذه الابتسامة النائمة ترف على شفتية وان عينيه لمغمضتان .

نم يا بني نم ، لامر من امر الله كان مقدمك ، وكان سفرها الباغت بلا وداع .

واودعت الصبي فراشه وهممت أن اعود الى قلمي وكتابي ،وماذا تملك يداي بعد من متاع الدنيا غير القلم والكتاب ..

واحسست حركة خلفي فلبثت هنيهة ، ولكن الحركة لم تهدأ ، وكانت الطفلة في الفراش الاخر تدعوني ، لان اختها الصغيرة ضغطت ذراعها ، وهي الى جانبها نائمة ، وقضيت الى جانب فراش الصغيرتين ساعة اتحدث اليهما ساعة وتتحدثان ، بالشفتين تارة وبالعينين ، ثم غلبهما النوم ، كما نام اخوهما من قبل وبقيت احلامي ساهرة ..

وتسحبت في مثل حركة اللص الى مكتبي لاقضي ما بقي من ساعات الليل ، وتناولت ركاما من الصحف اقلبها بعيني ، وما بي ان اقرأ ولكنه ملل العاجز الحيران ..

واستيقظت قبل ان انام فخرجت اسعى مع اول شعاعة من نور الصبح ، التمس السبيل الى المنشئات الاجتماعية اسألها ان تؤوي اطفالي وعلي ما تفرض من النفقة .

هذه واحدة واخرى وثالثة ..

وانتهيت من طوافي قبيل الغروب لاعود الى داري على حدود الصحراء ، فتستقبلني بالباب طفلة تلثغ ، وطفلة تحبو ورضيع يمص اصبعيه من ظمأ وجوع ، وقالت الكبرى ، اين كنت يا ابت ، لقد انتظرتك طويلا بالحديقة حتى ذبلت الوردة ، وكنت اريد ان تقطفها لي .. »

✱✱

وتمر الايام ويجيء رمضان وتهتز نفس الشيخ قاف للذكرى ..

« هذا رمضان قد جاء ، وان لكل رمضان حديثه ومسامراته ونجواه ، فما بال رمضاني صامتا ، ليس فيه حديث ولا مسامرة ولا نجوى ولا نور ، منذ عام كان لي دار غير هذه الدار ، وبلد غير هذا البلد ، واهل غيرهذاالاهل، فاين داري وبلدي واهلي ..

ها انذا اقيم في هذا المكان منذ رماني القدر من بغتاته بما رمى، منفردا باحزاني في حدود الصحراء ، هذه النخلات بازائي ، وهذه النخلات من ورائي ، وهذه الرمال .. حتى الفت مكاني ، فما بالي اليوم يعاودني حنين المغترب فيطوى بي الزمان والمكان الى حيث يذكرني وما نسيت ..

اين انا مما كان واين انا مما سيكون

وجلست وحدي في الشرفة انطلع الى السماء ، وكم لنا في السماء من غايات ، وكم لنا عندها من ودائع !

في مثل هذا اليوم منذ عام لم اكن في مجلسي وحدي ، ولم تكن نظرتي الى السماء نظرتي وحدي ، ماذا ارى الساعة ومن ذا يراني ، لا شيء لا شيء ولا احد ، غيري وغير احزاني .

واذن مؤذن (الراديو) في المنزل البعيد فخف كل صائم الى مائدته، وثقلت بي همومي فلم اغادر مكاني ونظرت نظرة الى وراء ، فثابت الي نفسي ، هذه ابنتي الصغيرة تدعوني الى مائدتي ، والى جانبها اخواها الصغيران ، طفلة تستند الى مهد طفل رضيع ، هذه اسرتي منذ اليوم، بل منذ امس الذي كان ..

وحسوت حسوة من دموعي ، ثم نهضت الى المائدة !

من اجل هؤلاء يجب ان اعيش ..

وخيم السكون على الدار الصامتة الا صوت اب يضاحك بنيه على المائدة والى جانبه مقعد خال !

ومضت ساعة الغروب في اول يوم من رمضان ، ولا حديث ولا مسامرة ولا نجوى ولا نور ..

يا ليالي من رمضان فاتت ، وفي رماضين قبله ، عليك وعليك ، عليك اسكب احزاني دموعا جافة لا ترطب وجنة ملتهبة ، ولا تطفىء

✱✱

نامي يا ابنتي نامي

ونامي انت ايضا ايتها الصغيرة ، لقد نامت اختك

ونم انت كاختيك ايها الطفل الصغير ، ان لابيك الليلة ما يشغله عنك وعن اختيك ..

وخلوت الى نفسي.. الليل ما زال في اوله ، وانه لاول ليل في رمضان ، فما بال هذا الصمت يكتنفني حتى كأنه ما على ظهرها غيري..

هذه البيوت المتناثرة على مبعدة ما بالها خافتة الضوء ، ساكنة الحركة كانما شأنها شأني ..

وهذه النخلات المنتصبة في العراء ، ما بالها ساكنة الظلال ، صامتة الحس كأنما تتسمع همسات قلبي .

وهذه الشعاعات المنبعثة من شتى جهات المدينة وضواحيها ، صاعدة الى السماء ، تلتقي وتفترق ، وتأتلف وتختلف ، لكأني رأيتها قبل الليلة وفي مثل هذه الليلة ، عم تبحث في حواشي الافق ، وتتبعها عيناي ..

ان لي في السماء ضالة انشدها ، انها تحول بيني وبين ما اريد ان ارى ، انها تضرب ستارا بيني وبين السماء ، على حين يخيل الي انها تنير حواشي السماء ..

وأغمضت عيني فرأيت ، وحف الشجر في الحديقة حفيفا اعجم ، ليس له جرس ولا معنى ، كأن (شيئا) يتخذ طريقه من خلال الاغصان المتشابكة ، وأستروحت عطرا الفته منذ سنوات واسكرني الشذى فضرب على عيني وايقظ وجداني .. ايها الطيف الذي انعم بالوداد في اول ليلة من ليالي رمضان .. ليتك وليتني ، ليتني واياك لم يكن لنا في هذه الحياة تاريخ ..

لا ، بل سيخلد هذا التاريخ ، وسيبقى ، انني لاضن به على النسيان .

وتسحرت كما يتسحر الناس ، وضممت اطفالي الى صدري ونمت.

واستقبلني بني بالتهليل في بكرة الصباح وضحكت لهم وضحكوا واسرفت في المزاح ، واسرفوا في الضحك ، .. ذلك حقهم علي بعد ليلة عابسة جافة ليس فيها من شيء رطب غير الدموع .

ورضيت عن نفسي حين طاب لي ان اصطنع في تحيتهم هذا النفاق لاحمل عن قلوبهم الصغيرة بعض ما تحس من الم الوحدة طول النهار ..»

✱✱

ومضى الشيخ قاف ، ومضت الحياة ، على هذا النسق من الحزن العميق حتى جاء يوم العيد ..

« اليوم يوم عيد يا صغيرتي فقومي ..

قومي فالبسي جديدك وافرحي فرح الاطفال بالعيد ، لتمنحيني من (مرآك) في الجديد « منظرا » من فرحة الناس بالعيد .

لقد نصب في قلب ابيك ايتها الصغيرة كل احساس بمعاني الفرح والانس والمسرة فعوضيني عن الاحساس بمعاني الفرح في قلبي منظرا تشهده عيناي .

ما لعينيك تبحثان هنا وهناك ، كأنما تفقدين شيئا من مجالي العيد لا تراه عيناك هنا ولا هناك ..

انظري ، ها انذا ابوك ، وهذان اخواك الصغيران ، فماذا تنكرين في عيدك يا صغيرتي ، وماذا ينقص عيدك من اعياد الناس ..

وانت ايتها الصغرى ..

اهتفي ما تهتفين بحديثك الاعجم ، وارسلي نفسك وراء عينيك تبحثان في كل زاوية من زوايا الدار ، ليس من شيء هنا غير ابيك واخويك ، وغير هذا الجديد من ثياب العيد .

وانت يابني .. هاتان عيناك تشهدان أول عيد ، فمـا لشفتيك تختلجان ، كأنما تحاولان كلمة لم يسمعها سامع ، وليس عليها جواب ، .. فمآن الى ثدي لم تلقمه شفتاك ، ولم تحس مذاقه .. لهفان الى صدر لم تستشعر حنانه ساعة ولا رأيت عناقه ، ...

لا لا قوموا يابني فالبسوا جديدكم وافرحوا فرح الاطفال بالعيد انه عيد الناس ، وانه عيدي لانني على موعد مع الحبيب ..

ها انذا ذاهب اليه لانتشي على مقبره من عبير ترابه واذرف على ثراه دموعي .. »

✱✱

ويمر عام على ولادة طفله ، وهو نفس الموعد الذي ذهبت فيه الام الحبيبة .. فلا يلبث أن يناجيه :

« ولـدي ..

« في مثل هذا اليوم منذ عام كان مولد طفل ، وانه لولدي ..

ها هو ذا بين يدي الساعة ، لم يزد على ما كان يوم رأيته لاول مرة الا بضعة ارطال من اللحم ، وبضع شعاعات من لمح العين ، وطائفة من الخواطر والذكريات تهمس بين نفسه ونفسي ..

وخلوت اليه احاول ان استنبئه فلم ينبئني ، وأدنيت وجها من وجهه احاول أن المس انفاسه فلم يلمسني ، وشددت يدي عليه احاول ان ابكيه ليفتح عينيه فلم يبك ، ولم يفتح عينيه ، أكان يدري ان الصورة التي ضم عليها اجفانه لن تتراءى له بعد فأمسكها ان تفلت واغمض عينيه ، يا ليته ، ولكنه لم يرها واحسبها لم تره كذلك ، فقد نفخت فيه اخر انفاسها وذهبت مغمضة العينين الى غير معاد ، وخرج الى الدنيا بلا ام .

وليد بلا ام ، كالمسيح : خرج الى الدنيا بلا اب ، ولكن المسيح وجد ثديا يدر ، وصدرا يحنو ، وقلبا لا تشغله الذكريات من خفقات الحنان والحب .

وسمعته يبكي لاول مرة ، وفتح عينيه ثم اغمضهما ، وشدد قبضته على صدغيه ، اكان يأمل ان يرى شخصا غير من رأى ، هيهات ، لقد ذهبت « تلك » ولن تعود .

واجتمع بعد شتات ما بقي من اشلاء الاسرة المحطمة ، وسعت الصغيرتان حول مهاد اخيهما ، واحدة تدرج ، وواحدة تحبو ، وسالت كبراهما : من هذا وعييت بالجواب .

اذاك ولدي الذي لبثت سنوات وسنوات اهتف به في يقظتي وفي احلامي ، وأسأل : اين انتم يا احبائي ؟

ولكني لم أتخيل قط في يقظة او في منام ان يكون ذلك الذي كان ، بلى ، انه ولدي ، ولكن اين مني مكانه ولا أم .. وهل يرى الاب ولده اول ما يراه الا في عيني امه ، فاين مني .

وشب الطفل على يدي ، واستدار العام ، هذا عيد مولده وانه يوم الحداد .

وكما تلقيته من يدي حاضنته اول يوم والريح تنوح والجو عاصف، تناولته اليوم بين يدي وفي قلبي من زفيف العاصفة من لوعة الذكرى..

آه يابني .. انظر الي طويلا ، انني انا ابوك ، مالك تحول عينيك الى بعيد كأنما تنتظر مقدم احد ، أن الذي تنتظره يابني لن يعود .. ما انت الا طفل بلا ام في عيد مولده الاول .

وكنت يوم رأيتك يابني في احلامي منذ سنين ، قد رأيت لك صورة غير هذه التي ارى ، وكانت من خداع المنى ، فاليوم تتراءى لي هذه الصورة وقد غاب نصفها في التراب فتجد لي ذكرى وما اطيق ان احدثك ..

ولكن صفحات اخرى ستعرفك كيف كان ابوك لك وانت ما تزال بعد امنية تختلج في صدر فتى وفتاة ، ضربت التقاليد بينهما الحجاب بضعة عشر عاما قبل ان يلتقيا ، ثم ما كادا يلتقيان حتى افترقا الى غير لقاء . »

✱✱

هذا هو الجانب الغامض الخفي في حياة الشيخ قاف ، فمن هو الشيخ قاف ؟

انه شيخ فعلا ، تعلم في الازهر ثم في دار العلوم ، ثم صحب علامة الادب ونابغته مصطفى صادق الرافعي ، وعاش معه سنوات وكتب عنه اول كتاب ، ولقد يتساءل القارىء لماذا كتب « قطر الندى » و« شجرة الدر » و « على باب رذيلة » و « بنت قسطنطين » ؟ الا فليعلم ان السر عند هذه الازمة التعيسة الضخمة التي فتحت له الطريق الى عمل كبير ، والتي حاول ان ينساها باغراق نفسه في عمل يملأ حياته ، ذلك كان شأنه بعد ازمته ، عكف على مجلدات التاريخ يقرأ ، وسار في نفس الطريق الذي مضى فيه من قبل جرجي زيدان ومعروف الارناؤوط وفريد ابو حديد واحب هذه الفترة الدقيقة من تاريخ مصر بين طومان باي والغوري والسلطان سليم ولكأنه احس بأن قصته ستكون يوما تاريخا فكتب يخاطب ابناءه :

« آه يابني . لكأني بكم وقد كبرتم فرجعتم الى ماض الايام تنبشونه لتعرفوا ما كان شأنكم وشأن ابيكم في ذلك الماضي الاليم ،فاذا رجعتم الى هذه الصفحات يوما فلا يؤلمنكم ما تقرءون او يحملكم على سوء الظن بابيكم ، ليس ما بي الساعة ان انكر مكانكم في نفسي وانكم لتملأون على ما اجد من فراغ في نفسي ، ولكني انكر زماني ..

واني لامسك القلم بين اصبعي الساعة وانظر الى رؤوسكم الصغيرة موسدة في فراشها ، احاول ان استمليكم بعض ما يتراءى لكم في الحكم من صور تتراءى لي في هذه السمات عابسة ومبتسمة ، فماذا اكتب !

انا منكم على ما وصفت من حالي ، ساهر ابدا ، عاجز ابدا ، يائس ابدا ، فاين انتم مني ، افترونني اؤدي لكم حقكم من الحنان والحب وحسن الرعية على مقدار ما اؤدي لنفسي من حقها بالتأوه والشكوى ؟

ليتني ادري .. ولكنكم ستدرون يوما وتعذرون اباكم .

ان قارورة العطر زجاجة وسائل تحتويه الزجاجة ... انها قارورة عطر وان خلت من سائلها .. »

✱✱

وبعد فهذه نماذج من كتابات كثيرة تملأ صفحات ، تمثل جانبا من حياة « الشيخ قاف » وهناك جوانب اخرى من حياته واثره وانتاجه وفكره تستحق الكتابة ، ربما تعود لها ، اهمها جانب كتاباته « عن المؤثرات السياسية في طائفة من ادبائنا » وهو يحث ظل حريصا طوال حياته ان يستكمله ولكنه كان ينثني عن نشره ..

وبعد فقد عاش الشيخ قاف محبا ، صادق الحب ، للام التي مانت يوم ولادة الطفل الابن الذي ظلا يترقبانه معا ، عاش حتى بعد ان تزوج بعد وانجب ، وامتدت الحياة امامه واتسعت ، عاش يلبس حتى انمات، رباط رقبة اسود .

وبعد فأن (الشيخ قاف) صاحب يوميات « تحت الرماد » هو الكاتب العربي « محمد سعيد العريان » المتوفي خلال شهر يونيو الماضي بالقاهرة .

القاهرة — انور الجندي

طبعت على

مطابع دار الغد

تلفون ٢٢٢٩٢١